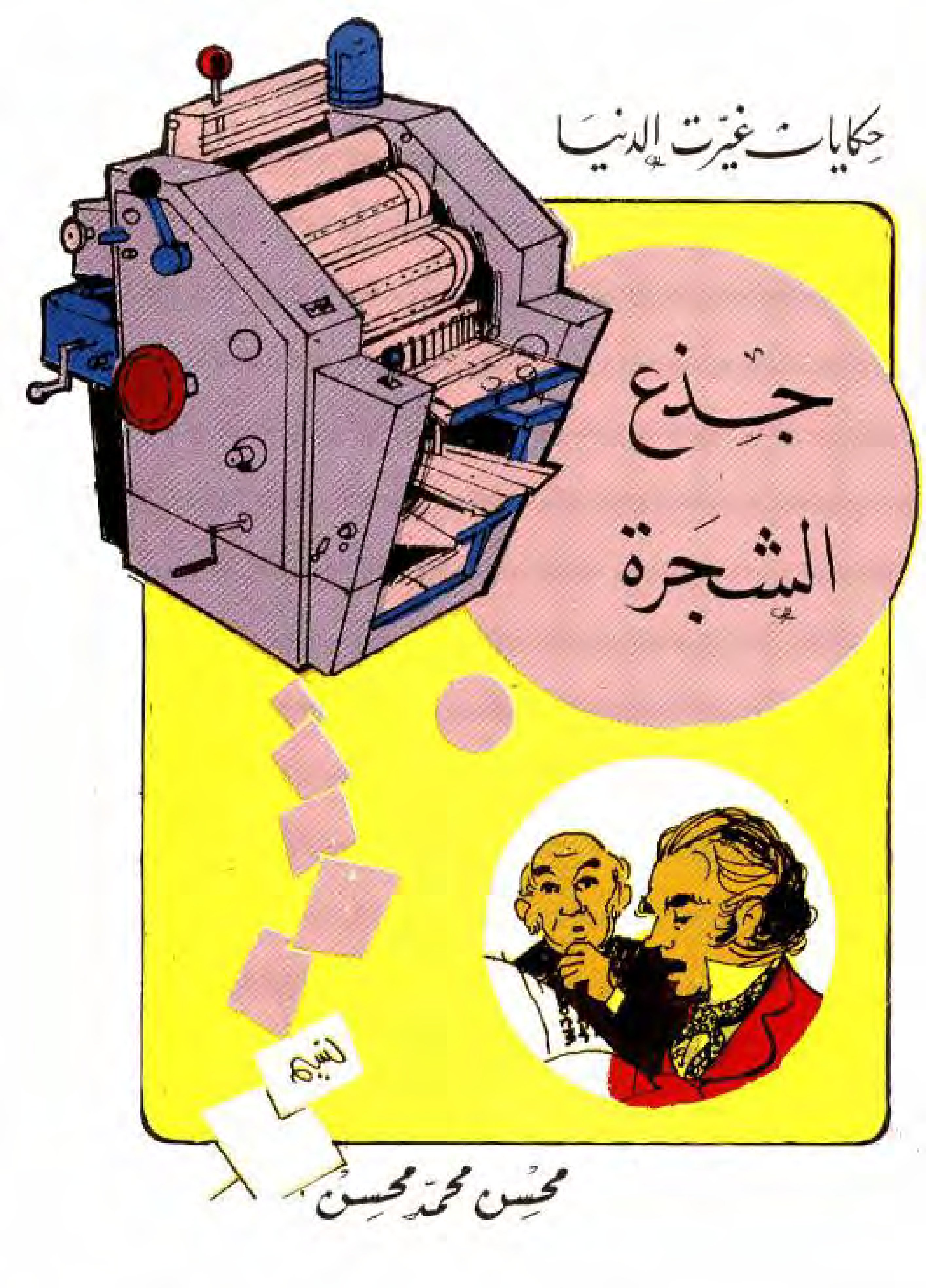


حكايات غيرت الدنيا
جذع الشجرة
محسن محمد محسن

١

من نحوِ خمسِمائةِ سنة ، خرج الشيخُ « كوستر » يتنزّه ذاتَ صباحٍ مُشرقٍ جميل ، فى الغَابةِ القريبةِ من بيتِه فى هُولندا ، أوِ الأراضِى المُنخفِضة كما يُطلقُونَ عليها ..

كان « كوستر » شيخاً طاعِناً فى السِّن ، ولكنّه كان يتمتّعُ بالصّحّةِ والعافية ، فقدْ تعوّدَ منذُ صِباه أن يتريّضَ ساعةً أو ساعتينِ كلَّ يوم ، يمشِى على قدميْه ، ويستنشقُ نَسيمَ الصَّباحِ العَليل الّذى يَسعَدُ به . وكان يضحَك من أعماقِه إذ يرى أنّه يَصحُو من نومه مبكّرا ، بينما النّاسُ يَغُطُّونَ فى نومِهم ، لا يُحِسُّونَ بجمالِ الطبيعة من حولِهم ، ولا يتمتّعونَ بالنّسيم العليل الذى يستنشِقُه « كوستر » وحدَه ، بينما سائِرُ النّاس ما يَزالُونَ فى سُباتٍ عميق .

فى ذلكَ اليوم ، خرج « كوستر » إلَى الغابةِ كما اعتادَ أنْ يخرجَ كلَّ يوم ، وراحَ ينظُر حولَه إلى بديعِ صُنعِ الخالِق ، الّذى تَجلّى فى كلِّ شيءٍ حولَه .. لقدْ عرفَ الشيخُ

« كوستر » كلَّ شبْرٍ فى تلك الغابة ، ومعَ ذلك لم يُحِسَّ بالمَلَلِ أبداً من زيارتِها كلَّ صباح ، ففى كلِّ مرَّةٍ كان يكتشِفُ شيئاً جديداً أُضيفَ إلَى جَمالِ الغابة .. شيئاً من صُنْعِ الرَّحمن ، لا يقدِرُ على الإتْيانِ به البشَرُ الضُّعفاء .

رأى « كوستر » ذلكَ الصَّباحَ شيئاً جديداً من صُنْعِ البَشَرِ الَّذينَ يَستغِلُّونَ الطَّبيعةَ الجميلةَ لصالِحِهِم فى بعضِ الأحيان ، ويُشَوِّهونَ جمالَها فى أحيانٍ أُخرى .. وجدَ شجرةً جميلةً يانِعة ، كان قد رآها بالأمسِ فى هذا المَكان ، وقد امتدَّتْ إليها أيْدى الحَطَّابين فاقتلَعتْها من جُذُورِها ، ولَمْ تترُكْ منها إلَّا هذا الجِذْعَ الصَّغير .

حزِنَ « كوستر » على الشَّجَرةِ حزناً شديدا ، فهو يكره أن يُفسِدَ الإنسانُ الطَّبيعة ، الَّتى خلَقَها الله سبحانَه وتعالَى لمَنْفَعَتِه ومُتْعتِه . لقد كان « كوستر » من ذلك الصِّنْفِ من النَّاس الَّذى يُحبُّ أن تُترَكَ الأشياءُ حيثُ خلَقها الله ، إلَى أن تَصِلَ إلَى نِهايَتِها المَحتُومة ، بالشَّيخُوخة ثم الموت .

تحسَّسَ الشَّيخُ « كوستر » جِذْعَ الشَّجرة بيدِه ، ثم جلسَ



عليه يستريحُ بعدَ أن تجوّلَ فى الغابة ، واستنشقَ عَبيرَ الهواءِ المُفعَمِ بالأُكسِجينِ الّذى تُفرِزُه غصونُ الأشجارِ الخَضراء ، والّذى هو عِمادُ حياةِ الإنسانِ ، مَثلُه فى ذلك مَثَلُ الماءِ تماما . ولم يكن « كوستر » يدْرِى فى ذلكَ الوقت أنَّ ذلكَ الجِذْعَ الّذى يجْلِسُ عليه ، سيكونُ سَبباً فى إسعادِ ملايين النّاس فى كلِّ أنحاءِ العالَم ..

شردَ ذِهنُ « كوستر » وهو يجلِسُ فوقَ جِذْعِ الشّجرة ، وتذكَّرَ أحفادَه الثّلاثة ، وتذكَّر أنّهُ تعوّدَ كلّما ذهبَ لزيارتهم ، أنْ يُهْدِيَ إليهِم بعضَ الهَدايا اللّطيفة الّتى تجعلُهم يلتفُّونَ حولَه ، يُهلّلونَ فى سعادة .

إنَّ ابتسامةَ الأطفالِ الصّافية ، وفَرحَتَهم الغامِرة ، وحُبَّهُم البرىء ، ولَهوَهُم ولَعِبَهُم ، لَهِيَ كذلكَ من معانِى الجمالِ الّتى أبدَعهَا الخالِق ، وجعلَ منها ــ إلَى جانبِ الصّحّةِ والعافِية ــ معانِيَ إلهيّةً تُعبّرُ عن مدَى حُبِّ الله لمخلوقَاتِه من البَشَر .

لم يشعر « كوستر » إلّا وِمِطْواتُه تعْبَثُ بجِذْعِ الشّجرةِ

الّذى يجلِسُ عليه ، وتنزِعُ قِشْرَتَهُ اليابِسَةَ الظاهِرِ ، الرَّطبَةَ الباطِنِ ، والّتى تُعرَفُ بِلحاءِ الشَّجرِ ، وينْحِتُ فيها أحرُفاً أبجَدِيَّة ، ويُزخرِفُها بالمِطْواةِ دونَ وَعْيٍ منه ، وذِهْنُه شارد يفكِّرُ فى أحفادِه الصِّغار ، ومدَى تَعلُّقِهِم برقَبَتِه عندَ عبورِه عتبةَ الدار .

واليومَ هو مَوعِدُ زيارَتِه الأسبوعِيَّةِ لهم ..

وكأنّما سخَّرَ اللهُ سبحانَه وتعالَى يدَ « كوستر » لتعبثَ بالمِطْواة ، وتَحْفِرَ تلكَ الأحْرُفَ الجميلةَ على لِحاءِ ذلكَ الجِذع ، فتفتحَ أمامَ ملايِينِ البَشَرِ آفاقاً جديدة ، كان من المُمكنِ أن تظلَّ مجهولةً لولا الشيخ « كوستر » وذلك الجِذع .

انتهَى « كوستر » من حفرِ خمسةِ أحْرُفٍ جميلة ، بما تحوِيهِ من آياتِ الزَّخرَفة ، فقد تعَوَّدَ النَّاسُ فى ذلكَ الزَّمانِ أن يُزيِّنوا كتاباتِهم بزخارِفَ فَنِّيَّةٍ جميلة . والواقِعُ أنّهم ، حتَّى ذلكَ الوقت ، لم يكونوا قد عَرَفُوا الطِّباعةَ بعد ، ولكنَّ مَنْ يعرِفُونَ الكتابةَ منهم ، كانُوا إذا نَسَخُوا أو كتبُوا أىَّ شىء ،

يُزَخْرِفُونَ الحُروفَ زَخْرَفَةً ما بعدَها زَخْرَفة ، رغمَ ما كانُوا يعانُونَه فى الكِتابة ــ بَلْهَ الزَّخرفة ــ من جُهدٍ ووقْت ، ويكفِى أنْ نعلَمَ أنَّ الكِتابَ الواحِدَ كان يستغرِقُ نَسْخُهُ سنتينِ أو ثلاثا ، لنعرِفَ مَدَى الجَهْدِ والوقتِ اللذين كان يستغرِقُهُما النَّسَّاخُ فى إنْجازِ كتابٍ واحد .

أفاقَ الشَّيخُ « كوستر » من شرودِه ، ورأى بينَ يدَيهِ خمسةَ الأَحْرُفِ الجميلةِ الزَّخرفَة ، ولم تُطاوِعْهُ نفسُهُ على إهْمالِ شأْنِها ، فأخرجَ من جيبِه رَقًّا ، وهو قِطْعَةٌ من الجِلدِ المُعَالَج كيميائِيًّا ، كان يحتفِظُ بها ليَكتُبَ عليها ، ولَفَّ فيها الأَحْرُفَ الخمسة ، وقامَ من مكانِه ، وذهبَ ليزورَ أحفادَه .

وفى الطَّريق سارَ « كوستر » يفكِّرُ فى الهَدايا الَّتى سيُهدِيها إلَى أحفادِه الصِّغار ، ويَدُهُ تعبَثُ بما فى جيبِه من نُقود لا تَكْفِى لشِراءِ تلكَ الهَدايا ، وفجأةً عندَما اصطَدَمَتْ أصابِعُه بالأَحْرُفِ الأبجَدِيَّة الَّتى أبدَعَ فى زَخرفتِها واتته فِكرة : لم لا يُهدِى هذه الأحْرُفَ إلى أحفادِه ؟ لا شكَّ أنهم سيفرَحُونَ بها كثيرا ، وفى نفسِ الوَقتِ يُنَمِّى فيهم حُبَّ القراءةِ

والكتابة ، وروحَ الإبداعِ الفَنّىّ ..

٢

دخل « كوستر » منزِلَ ابنِه ، فقابَلَهُ أحفادُه كما اعتادُوا أن يُقابِلُوهُ بحَفَاوَة ، فأخرجَ من جَيبِه الأحْرُفَ الأبجدِيَّةَ التى احتفظَ لهم بها ، وراحَ يفتحُ قِطْعَةَ الجِلْدِ التى يَلُفُّها فيها، فهالَه ما رأى .. ما هذه الأشكالُ الخضراءُ الَّتى طُبِعَتْ على قِطعَةِ الجِلْد ؟ إنَّها نفسُ أشكالِ الحُروفِ الَّتى نحتَها فى لِحاءِ جذعِ الشَّجرة .. والواقِعُ أنَّها غيرُ واضحة تماما ، ولكنَّها مقروءة .

تخاطَفَ الصِّغارُ الأحْرُفَ الخمسةَ من يدِ جَدِّهم ، ودبَّ بينَهم الشِّجارُ من أجلِ الحَرْفَينِ الزَّائِدَينِ علَى عدَدِهم ، من منهُم أحقُّ بهما ؟ بينما وقف « كوستر » غيرَ بعيدٍ من أحفادِه ، وذهنُه غائِبٌ عنهم ، يفكِّرُ فى جِذْعِ الشَّجرة، ويُحاوِلُ أن يَجِدَ تَفسيراً لِما حَدث .. إنَّ جِذْعَ الشَّجرةِ يحملُ

الغِذاءَ لكلِّ أجزاءِ الشجرة ، ولذلكَ يكونُ رَطْباً دائِما ، فعندَما حفرَ عليهِ الأحرُفَ كانَ لا يزالُ رَطْبا ، فطبَعَ علَى الرَّقِّ « قطعةَ الجِلد » نفسَ أشكالِ الأحرُف ، لما لُفَّ وضُغِطَ عليها فى داخِلِ الجَيب .

شغَلَ ذلكَ الأمرُ « كوستر » ، فأما والأمرُ كذلك ، فلِماذا يُجْهِدُ النَّسَّاخُونَ أنفُسَهم فى نسخِ الكتاب ، ويُعانُونَ الجَهدَ ويبذُلُونَ الوَقْتَ فى سبيلِ الحُصولِ على نُسخَةٍ واحدةٍ من كتاب ، يستمتِعُ بها شخصٌ واحدٌ فقط دونَ ملايينِ النَّاس ؟ إنَّ اقتناءَ الكتُب على هذا النَّحوِ قاصِرٌ على الأغنياءِ فقط .. فلماذا لا يَستفيدُ كلُّ النَّاس من الكتب ؟ إنَّه إذا صَنعَ أحرُفاً من الخشَبِ كالأحْرُفِ الَّتى حفرها فى لِحاءِ الشَّجرة ، وبلَّلها بالحِبْرِ لاستطاعَ أن يطبَعَ مئاتِ النُّسَخ ، فيستطيعَ الفُقَراءُ كذلِكَ أنْ يَقْتَنُوها ، لأنَّ النُّسخَةَ لنْ تُباعَ بمائةٍ وخمسينَ رِيالًا أو مِائتين ، كما هوَ الحالُ الآن ، فلنْ يُكَلِّفَه إعدادُ مئاتِ النُّسَخ إلَّا جَهْدُ حفْرِ اللَّوحةِ الخشبيَّة ، الَّتى تحتوى على جُمَلِ الكِتابِ وكلماتِه .

وشَرَعَ « كوستر » من فَوْرِهِ فى استعمالِ مِطْواته ، فحفرَ فى قِطعةِ الخشبِ كلماتٍ بسيطة ، عبارةً عن تَهانِى بالعِيد . وعِندَما فَرَغَ منها بعدَ جَهدٍ ليسَ بالقَليل ، بَلَّلَها بالحِبْرِ وطبَعَها على بِطاقةٍ مُعايَدة ، فتركتْ عَلَيها علاماتٍ سوداءَ تُشبِهُ الكَلِمات ، ففَرِحَ « كوستر » أيَّما فرح ، إذ تأكَّدَ له أنّه بقليلٍ من المِران يستَطيعُ أن يطبعَ الكتبَ بهذه الطَّريقةِ المُبتَكرة ، الَّتى لا شكَّ تُحقِّقُ الإتقان ، وتُوَفِّرُ الجَهْدَ والوقتَ اللَّذين يضيعانِ للحصولِ على كتابٍ واحد ، فى حين أنّه بهذِه الطَّريقة ، وبنفسِ الجَهدِ والوَقْت ، يستطيعُ أن يحصلَ على مئاتِ الكتب .

وتدخَّلتِ النَّفسُ البَشريَّةُ الَّتى جُبِلَتْ على الطَّمعِ وحُبِّ الذَّات ، فقرَّرَ الشيخ « كوستر » أن يحتفِظَ بهذا السِّرِّ الخطيرِ لنفسِه ، ويستأثرَ به وحدَه ، فهو صاحِبُ الفِكرة ومُكْتَشِفُها ..

ولكنَّ روحَه الطَّيِّبةَ لم تطاوِعْه على ما سوَّلتْ به النَّفسُ البشرِيَّة ، فتغلَّبَ على نَزْعةِ الاستِئثارِ والطَّمع ، وقرَّرَ أن يُدْلِى

بما توصَّلَ إليه للنَّاس ، عسَى أن يستَفِيدُوا من فكرَتِه .

٣

عرضَ الشَّيخُ « كوستر » الأمْرَ على أحدِ أصدِقاءِ ابنِه ، الَّذى حضَرَ لزِيارةِ هولندة ، فرحَّبَ به كثيرا . فقدْ رأى فيما اكتَشَفَه الشيخُ « كوستر » شيئاً مُهِمًّا ومُفِيدا ، ولكنَّه لم يقتَنِعْ بعمَلِيَّةِ نَحْتِ الحُروفِ وطَبْعِها باليدِ حرفاً حرفا ، أو كلمةً كلمة ، بل فكَّرَ فى صُنْعِ آلةٍ تطبَعُ الكُتُبَ بطريقةِ الضَّغط ، فتُصَمَّمُ الآلةُ بحيثُ توضَعُ بها اللَّوحة الخشَبِيَّةُ المنحوتُ عليها الكلمات ، وتُركَّبُ بها فُرشاةٌ تُغْمَسُ فى الحِبْر ، وتَدُورُ مع الآلةِ لِتُبلِّلَ الكلمات ، وبذلك يُستَغنَى تماماً عن استعمالِ اليد ، الَّتى لن تستطيعَ إنجازَ مئاتِ النُّسَخ ، كما تُنجِزُها هذه الآلة .

كان هذا الشَّابُ الذى عرضَ عليه الشيخُ « كوستر »

فكرته ، هو الشابُّ الذكيّ « جون جوتنبرج » الألمانيّ الجنسيَّة .

وانتهى الأمرُ عندَ هذا الحَدِّ بالنِّسبةِ للشَّيخ « كوستر » ، الَّذى كان له فضْلُ اكتشافِ الطِّباعةِ لأوَّلِ مرَّةٍ فى كلِّ بلادِ العالَم ، والذى لم تُمَكِّنه سِنُّهُ المُتقدِّمَة أن يُثابِرَ لِنَشْرِ اكتِشافِه وتطويرِه ، حتَّى يحقِّقَ له الوُجودَ الحقيقىَّ ، ويُحوِّلَهُ من مُجَرَّدِ فِكرةٍ فى رأسِه ، أو قولٍ عابرٍ يعرِضُه على النَّاس ، إلَى شىءٍ مادِّىٍّ ملموس ، يُفيدُ به البَشَر كما أرادَ .

ومرَّتِ الأيَّام ، ونَسِىَ الشَّيخُ « كوستر » الأمرَ كلَّه ، ولكنْ شاء الله جلَّتْ قُدْرَتُه أن يُقَيِّضَ لِهذا الأمرِ رجُلًا آخر ، حمَلَهُ على مَحْمَلِ الجِدِّيَّة ، مثلَما قَيَّضَ للشَّيخ « كوستر » من قبل جِذْعَ الشَّجرة ..

٤

عادَ « جوتِنْبرج » إلى مدينَتِه « ميتز » بألمانيا ، وكانَ يُمكِنُ أنْ يَنسَى ذلكَ الأمر ، وأن يكونَ لقاؤُه بوالِدِ صديقِه الهُولنديُّ الشيخ « كوستر » مجرَّدَ لِقاءٍ عابِرٍ في حياتِه ، ولكنَّ الموضوعَ شغلَه كثيرا ، وراحَ يفكِّرُ في الآلةِ الَّتي عنَّتْ له فِكْرَتُها ، ، والَّتي شرَحَ تصميمَها للشَّيخ « كوستر » شرحاً عابرا . حقًّا لماذا لا يبدأُ بمعاونةِ بعضِ أصدقائِه في صُنعِ تِلْكَ الآلة ، فيستطِيعُ أن يُنتِجَ بنفْسِ الجَهْدِ الَّذى يَلْزَمُ لإنتاجِ كتابٍ واحد ، عدداً أكبرَ من الكتب ؟

بدأ « جوتنبرج » يُفَكِّرُ في عَمَلِيَّة الطِّباعةِ تفكيراً جدِّيا ، فتركَ عملَه الأساسيَّ الَّذى يتعَيَّشُ منه هو وزوجتُه ، حيثُ كانَ يعملُ في صَقْلِ الماسِ والأحجارِ الكريمةِ الأُخرى ، واعتكَفَ في منزِلِه يُخَطِّطُ ويُصَمِّم ، ليطبعَ أوَّلَ كتابٍ في العالَم .

وكانَ يوماً خالَداً ذلكَ اليومُ من عام ١٤٢٠ ، عندما بدأ



« جون جوتنبرج » يُسَوِّى ويُنَعِّمُ بعضَ الألْواحِ الخشَبِيَّة ، تمهيداً لحفْرِ الكلماتِ عليها ..

ونظَرتْ إلَيهِ زوجَتُه « أنّا » وهو يحفِرُ الكلماتِ على المُستطِيلاَتِ الخَشَبِيَّة ، وعَجِبَتْ له كيفَ يترُكُ عمَلَه ، ليعبثَ بتِلْكَ الألواحِ ؟ وما الَّذى انتابَه ؟ هلْ قَرَّرَ العمَلَ فى نَقْشِ الرُّسومِ على اللَّوحاتِ الخَشَبِيَّة ؟ تساءَلَتْ « أنّا » ، ولكنَّ « جوتِنْبرج » كان مُكِبًّا علَى العمل ، لا يعبأُ بشىءٍ مِمَّا حولَه ، اللَّهمَّ إلَّا إنْجازَ ما عزَمَ على إنْجازِهِ ..

ومرَّتِ الأيَّامُ و « جونْ جوتِنْبرج » مُستَغْرِقٌ فى العمل ، وما هى إلَّا أسابيعُ حتَّى انتهى من حفرِ عشْرِ صفَحَاتٍ من كِتابٍ عن لُعْبَةِ الشِّطْرَنْج . كان الكتابُ يقَعُ فى ستِّينَ صفحة ، ولكنَّه قرَّر أنْ يبْدأَ من فَوْرِهِ فى صُنْعِ آلَةِ الطِّباعة ، بمُعاوَنةِ صَدِيقَينِ لَه عَرضَ عليهِما الفِكرة ، وأطلَعَهُما على الصَّفحاتِ المحفورة ، فتحمَّسا للعملِ ، وبَدءُوا جميعاً فى تنفيذِ فِكْرةِ أوَّلِ آلَةِ طِباعةٍ فى تاريخِ البَشَر .

وتمَّ صُنْعُ آلَةِ الطِّباعةِ الأُولَى ، وكانَ الجَهْدُ الَّذى يبذُلُه

جونْ وصديقاه كبيرا ، فالأمرُ لا يقتصرِ على حَفْرِ الحُروفِ وحَسْب ، وإنَّما يَلْزَمُ حفْرُ الحُروفِ جميلةً وفى وضْعٍ مقلوب ، حتَّى تُقْرأَ بعدَ طبْعِها فى وَضْعِها الصَّحيح .

وتطلَّبَ الأمرُ إلى جانِبِ جَهْدِ الأسابيع ، ألْواحاً كثيرةً من الخَشب ، كانت باهِظَةَ التَّكاليف ، ولكنْ عندما انتهى الأصدِقاءُ الثَّلاثة من طبعِ أوَّلِ كتابٍ فى العالَم عن لُعبَةِ الشِّطْرنج ، بطرِيقَتِهم المُبتكَرة ، كانت فرحَتُهم غامِرَة ، خاصَّةً لمَّا تناقَلَ النَّاسُ خبرَ الاختِراعِ العجِيب ، وتَدافعُوا لِشراءِ نُسَخِ الكتابِ ذى السِّتِّينَ صفحة ، أوَّلِ كتابٍ مطبوعٍ ظهرَ فى العالَم ، فى القَرنِ الخامِسَ عشَر .

وتتابَعتِ الأيَّام ، وتناقَلَ النَّاسُ الخبرَ فى كلِّ مكانٍ فى ألمانيا وهولنده ، وانتشَرتِ الطِّباعةُ فى القُطْرَين ، واحتاجَ الأمْرُ أنْ يَزيدَ « جوتنبرج » عددَ النُّسَخِ المطبوعةِ من كتابه عن الشِّطرنج ، على الرُّغم من أنَّ لُعبَةَ الشِّطْرنج لم تكن تَهُمُّ الكثيرين ، ولكنَّ النَّاسَ سارَعُوا إلى اقْتِناءِ نُسخَةٍ من الكتابِ المَطبوعِ على الطَّريقةِ الجَديدة .

٥

وذاتَ مساءٍ ، بينما يَقْطِفُ « جون جوتِنْبرج » وزوجتُه « أنَّا » ثمارَ نَجاحِه السَّاحِق ، دفعَه هذا النَّجاحُ إلى أنْ يشرَعَ من فَورِهِ فى طَبْعِ كِتابٍ يَهُمُّ النَّاسَ اقتناؤُه ، هو الإنْجيلُ الكتابُ المُقَدَّس ، فبَدأَ فى حَفرِ صَفَحاتِه بتَشْجيعٍ من زوجتِه « أنَّا » ، نفسِ المَرأةِ الَّتى سَخِرَتْ منه فى أوَّلِ الأمر ، عندما تَرَكَ مِهْنَتَه ، وتحوَّلَ إلَى الحَفْرِ على الخشب . وفيما هو يعملُ فى حفرِ أُوْلَى صَفَحاتِ الإنْجيل ، إذِ انزَلَقَتْ سِكِّينُ الحَفْرِ ومَرَّتْ على بعضِ الحُروفِ الَّتى نَقَشَها فشَوَّهَتْها ، وبذلكَ أتْلَفَتِ الصَّفحةَ كلَّها ، بعد أن كادَ « جوتِنْبرج » يفرُغُ منها .

صاح « جون » : يا لَلْخَسارة ! إن انزِلاقَةً يسيرةً من السِّكِّينِ أتْلَفَتِ الصَّفحةَ كلَّها . ألا ما أغْبانِى ! فَنَظْرَةٌ عابِرةٌ نظَرْتُها إلى الرِّداءِ الَّذى تَخيطِينَهُ يا « أنَّا » ، ضَيَّعَتْ علَىَّ

جَهْدَ يومَين .

أجابتْ « أنّا »: إنّى أعْلَمُ كم تبذُلُ من الجَهْدِ فى حفرِ صفحةٍ واحدة ، والإنجيلُ يحتوى على مئاتِ الصَّفحات الَّتى تتطلَّبُ الحَفْر ، ولكنّى أُريدُكَ ألّا تيأسَ هكذا . استرِحْ اللَّيلةَ ، وغداً بمعاوَنَةِ بعضِ أصدقائك ، تُعيدُ حَفْرَ الصَّفحةِ التَّالِفةِ وغيرِها إنْ شاءَ اللهُ .

نظَرَ « جوتِنْبرج » إلَى الصَّفحةِ التَّالِفة الَّتى تَعِبَ فى حَفْرِها فى غيظٍ شديد ، وراحتِ الأفكار تُراوِدُه .. إنَّه رَغْمَ ما حَقَّقَه من النَّجاحِ فى طَبْعِ كِتابِه الأوَّل ، إلَّا أنَّه أنْفَقَ الجُزءَ الأكْبَرَ منْ مُدَّخَراتِه على اختِراعِه . فهلْ يا تُرَى يستحقُّ ذلكَ ما أنفقَهُ من جَهْدٍ وتعبٍ ؟ وتُرَى هلْ يعودُ علَيهِ يوماً برِبْحٍ مّا ؟ إنَّه يخشَى إنِ استَمرَّ علَى هذا الحالِ ، أن ينتهيَ به الأمْرُ إلَى الإفلاس . فها هيَ انزِلاقَةٌ يسيرةٌ من سِكّينِ الحَفْر ، تُودِى بِجَهْد يومَينِ كامِلَين ، سهِرَ فيهما وأتْعَبَ عينَيهِ ويدَيه .

كان « جون جوتِنْبرج » يتمنَّى أن يطبَعَ التَّوراةَ أيضا ، لِيَتسنَّى لِكُلِّ النَّاسِ قراءَتُها ، وكانَ يتمنَّى كذَلِكَ

أن ينشُرَ الثّقافةَ بينَ النّاس ، أغنياءَ كانوا أم فُقَراء . فهناكَ أُناسٌ لم يَرَوا فى حياتِهم كتاباً أىَّ كتاب . ولكنَّ هذا العَملَ ، معَ ما فيهِ من مَشقّةٍ وجَهد ، غَيرُ مُجْزٍ ، ألا فَلْيُدَمَّر كلُّ شىءٍ تَعِبَ فيه وأنفقَ من مالِه ، كما دَمَّرَت سكّينُهُ فى لَحْظةٍ جَهْدَ يومَينِ كاملين .

ولكنَّ « جون جوتِنْبرج » صاحَ فجأةً ، بينما زوجتُه « أنّا » تنظُرُ إلَيهِ مدهُوشة : لا ، لنْ أتراجَعَ مهما كلَّفَنى الأمْرُ من مشقّةٍ ونفقَة ، حتّى لو بَلَغَ الأمْرُ أنْ أُفْلِسَ أو أُسجَنَ من أجلِ دُيُونى .. ولكنْ لا بُدَّ أن أعْثُرَ على طريقةٍ أسهَلَ وأيسَر ، وأقَلَّ تكلِفة .

نظَرَ « جون جوتِنْبرج » إلَى الصَّفحةِ الّتى أتلَفَتْها سِكّينُه فى أسىً ، ونظَرَ إلَى الحُروفِ الّتى لم تَمُرَّ عليها سِكّينُه فرآها مُستَويةً مُنتَظِمةً جميلة ، فقد حفرَها بِعِنايةٍ وإتقان . إنَّها الصَّفحةُ الأُولَى من إنْجيلِه الّذى عزَمَ على طَبعِه . وإنَّهُ لَيحْزُنُه أن يبدأَ من جديد ، ويُضَحّىَ ببدايةِ مَجْهُودِه ، الّتى ستكونُ بِلا شكٍّ أحْسَنَ وأجْمَلَ مما لو أعادَ حَفْرَها ثانية . وتناوَل

سِكِّينَه ، وما زَالَ اليأْسُ يُسَيطِرُ عليه ، وراحَ يقطَعُ اللَّوحةَ إلَى قِطَعٍ صَغيرة .

فاستغْرَبَتْ زوجَتُه وصاحتْ مُعْتَرِضَة : لا يا جُون ، لا يَحْمِلكَ اليأْسُ علَى أن تُدَمِّرَ عملَك ، احتَفِظْ باللَّوحةِ ولو علَى سبيلِ الذِّكرَى .

فضَحِكَ « جون جوتِنْبرج » وقالَ لها : لا تَفْزَعِي ، فإنِّي لَمْ أيْأَس بعدُ إلَى الحدِّ الَّذى يدفعُني إلَى تدمِيرِ نفسِي ، وعملِي — كما تعلَمِين — أحَبُّ إلَيَّ من نفسِي ، فكيفَ أُدَمِّرُه هكذا في لحْظَةِ يأْس . إنِّي فكَّرْتُ في هَدْمِ الطَّرِيقةِ الَّتي أعْملُ بها الآن ، لا في تدمِيرِ العَملِ نفسِه . فلِماذَا لا يكونُ عندِي كلُّ الحُروفِ الأبْجَدِيَّة ، فيُمْكِنُنِي استعمالُها مرَّةً بعدَ مرَّة ، في كلِّ الصَّفحات ، بَدَلًا من الجَهْدِ الضَّائعِ الَّذى أبْذُلُه في حَفْرِ نَفْسِ الأحْرُفِ في كلِّ صفحة ؟

تعجَّبَتْ « أنَّا » لكلِمات « جون جوتِنْبرج » ولَمْ تَفْهَمْ ما يَعْنِيه ، فتركَتِ الرِّداءَ الَّذى تَخِيطُه ، واقتَرَبَتْ من زوجِها تنظُرُ إلَى ما يَفْعَل ، حتَّى تَفهَمَ ما يقول .

فرأتْهُ يَفْصِلُ حروفَ الصَّفحةِ كلَّ حَرْفٍ على حِدَة ، ويُشذِّبُها بسِكِّينِه حتَّى أصبَحَتْ كلُّها مُتساوِيةً فى الحَجْم ، ثمَّ وضَعَها فى صُفُوفٍ مُتَراصَّة ، فتساءَلَتْ « أنَّا » : هلْ تعودُ إلَى طِباعَةِ كلِّ حَرْفٍ من حروفِ الكَلِمةِ على حِدة ، دُونَ اللُّجُوءِ إلَى آلةِ الطِّباعةِ الَّتِى كَلَّفَتْنا كلَّ مُدَّخَراتِنا ؟

فضَحِكَ « جونَ جوتِنْبرج » وراحَ يشرَحُ فِكْرَتَه : لا يا عَزِيزَتِى ، لا تَقْلَقِى على مُدَّخَراتِكِ ، فإنِّى سأُكَوِّنُ من الحروفِ كلِمات ، وأُكَوِّنُ من الكلِماتِ أسْطُرا ، حتَّى تكتمِلَ صفحةُ الإنْجيلِ فأرْبطُها بِخَيطٍ مَتِين ، ثمَّ أطْبَعُها .

فقالت « أنَّا » مُتَرَدِّدة ، خشيَةَ أن تُثَبِّط عزيمةَ « جوتِنْبرج » : ولكنَّكَ بهذا تَحْتاجُ إلَى أن تُكرِّرَ نفسَ الحَرْفِ مَرَّاتٍ كثيرة .

فأجابَها « جونَ جوتِنْبرج » : وهذا ما سأفْعَلُه ، فسَيكُونُ لَدَىَّ مِنَ الحُروفِ أكْثَرُ من طاقَم ، تكفِى لِتكوينِ الصَّفحةِ المطلوبة ، وبعدَ أن أطْبَعَها أستَعْمِلُ نَفْسَ الحُروفِ فى تكوينِ الصَّفحةِ التَّالية ، وهكذا ، وعلَى ذلكَ سيكُونُ علَىَّ — فى أوَّلِ


C B A

الأمر ــ أنْ أبذُلَ جَهْداً مُضاعَفاً فى حفْرِ تلكَ الحُروفِ ، وبَعْدَها أُوَفِّرُ ذلكَ الجَهد ، وتكونُ عِندى حروفٌ ثابِتة ، أستعملُها فى طبعِ أىِّ كتابٍ أُرِيدُ دونَ جَهدٍ أو تكاليفَ جديدة .

وهكذا تغلَّبَ « جون جوتِنْبرج » علَى ما اعتراه من يأْس ، وبشىءٍ من المُثابَرة ، انتَهَى من طَبْعِ الإنجيل ، كما انتهى من طبعِ غيرِه من الكُتُب .

٧

توالَتِ السِّنُون ، و « جون جوتِنْبرج » صامِدٌ فى المَيدانِ ليُحقِّقَ حُلْمَه ، بأَنْ يَجْعَلَ الكتُبَ قليلةَ التَّكالِيف ، وأَنْ يُنَفِّذَ الوَعدَ الَّذى قَطَعَهُ على نفسِه أمامَ الشَّيخ « كوستر » أَنْ يَنْتَشِرَ اختِراعُه وتعمَّ فائدتُه كلَّ النَّاس .

وفى سبيلِ ذلك باعَ كلَّ ما يَملِك ، وسُجِنَ وَفاءً لِدُيُونِه ، وحاوَلَ دائِنُه أن يَستَوْلِيَ علَى مَطبَعَتِه ، ويُحَقِّقَ لنفسِه الكَسْبَ

المَادِّىّ السَّهل ، ولكن « جون جوتنبرج » جاهَدَ وثَابَر ، واستَطاعَ أن يجتازَ كلَّ الصُّعوبات ، وأنْ يَجِدَ الوَسِيلَةَ السَّهلةَ المُيَسَّرَةَ لاستعمالِ الحُروف .

فقد ثبتَ لَدَيهِ من التَّجْرِبةِ ، أنَّ الحُرُوفَ المَحْفُورةَ من الخشب ، إذا تَشبَّعَتْ بالحِبْرِ تشقَّقَت ، وإذا زادَ عليها الضَّغْطُ فى أثناءِ الطَّبعِ لانَتْ وتَفَلْطَحَتْ ، فَتَطْمَسُ الكَلِمات . ففكَّرَ أن يَحْفرَ الأحْرُفَ فى الرَّصاصِ بَدَلًا منَ الخَشَب ، ولكنَّ الرَّصاصَ كانَ لَيِّناً كذلك ، ولا يَتَحَمَّلُ الضَّغْطَ علَيهِ فى أثناءِ الطَّبْع ، وطرَأَتْ علَيهِ فِكْرَةُ أن يحفِرَ الحُروفَ فى الحديد ، ولكنَّه لم يَنْجَحْ فى ذلكَ لصلابةِ الحديد ، وعدَمِ استطاعةِ تشكِيلِ الحُروفِ منه دونَ استعمالِ النَّار .

وبعدَ مُحاوَلاتٍ عَديدة ، وتَجاربَ باهِظَةِ التَّكالِيفِ أثْقَلَتْ كاهِلَه ، وأدَّت إلَى هُروبِ زَوجَتِه منه ، وتركِها إيَّاهُ وحدَهُ يُواجِهُ عَثَراتِ الحَياةِ وقسوةَ الدَّائنِين ، نجَحَ فى تكْوِينِ خَلِيطٍ من الرَّصاصِ والقَصْدِير ،حَفَرَ فيه الحروفَ بنجاحٍ كبير .

وعملِيَّةُ حَفْرِ الحُروفِ فى الخَلِيطِ عمليَّةٌ شاقَّة ، ولذَلِكَ

فكَّرَ « جوتنبرج » فى صَهْرِ الخَليط ، بعدَ أن أضافَ إلَيهِ مَعْدنَ الأنْتيمُون ، وبذَلِكَ أمْكَنَهُ أن يَسْبُكَ عدداً وافِراً من كلِّ حَرْف ، دونَ تَعَبِ الحَفْرِ ومَشَقَّتِه .

ولَمْ يَقِفْ جهدُ ذلكَ الرَّجُلِ العظيمِ عند هذا الحَدِّ ، فبعدَ أن نجحَ فى سَبْكِ الحروفِ المَعدِنيَّة ، صَمَّمَ آلةً ليطبَعَ هذه الحروفَ عليها ، علَى هيئةِ عَصَّارة ، بها صِينيَّةٌ خشبيَّةٌ مُركَّبٌ فيها زُنْبُركٌ كبير ، بأعلاه لوحةٌ مُستَوِيَةٌ من الخَشَب ، ترتفِعُ بارتِفاعِه وتنخَفِضُ بانْخِفاضِه . فتُوضَعُ الحروفُ على الصِّينيَّة ، حيثُ صُمِّمَ لها إطارٌ يضُمُّ حُروفَ الصَّفحةِ ضماً مُحْكَماً بدلًا من رَبطِها بالخَيطِ ، ثمَّ تُبَلَّلُ الحُروف بالحِبْرِ ، وتُوضَعُ الوَرَقَةُ فوقَ الحُروف ، ويُدارُ الزُّنبُركُ فتنزِلُ لَوحةُ الخشبِ وتضغَطُ الورقةَ فوقَ الحُروفِ ضغطاً قويًّا منتظِما ، ثم يَرفَعُ الزُّنْبُركُ اللَّوحةَ من علَى الوَرقة ، فتُنزَعُ الوَرقةُ فى حِرصٍ شديد ، فتخرجُ مطبوعةً مُتقَنة .

وهكذا حقَّقَ « جون جوتِنْبرج » النَّجاحَ الَّذى كان يصبُو إليه ، وأسَّسَ مطبعةً عظيمة ، طبعت مئاتِ الكتبِ الَّتى

حقّقتْ حُلْمَه القَديم ، وحُلْم الشيخ « كوستر » .

ومات « جونْ جوتِنْبرج » بعدَ أن حقَّقَ رسالَةً سامية ، خطَتْ بالبَشَرِيَّةِ أشواطاً بعيدةً فى طريقِ الحَضارةِ والمدنيَّة .

٨

ولم يقتَصِرِ الأمْرُ علَى « جونْ جوتِنْبرج » وحدَه ، فقدْ حملَ الرِّسالَةَ رِجالٌ غيرُه كذلِك ، فهناكَ عَبْرَ البَحْرِ فى إنجلترا ، كان نَسَّاخٌ شيخٌ يُدْعَى « ولْيم كاكسْتون » تعِبَتْ عَيناهُ فى نَسْخِ كتابٍ لسيِّدةٍ إنجليزيَّة عظيمة فى مدينة لَنْدَن ، فقرَّرَ أن يهْجُرَ مِهْنَةَ نَسْخِ الكُتُب ، بعدَ أن ضَعُفَ بَصَرُه وأصابَه الوَهَن . فما إن سَمِعَ أنَّ هناكَ آلَةً للطِّباعة تُستَعملُ فيها أحْرُفٌ ثابِتةٌ بعينِها ، حتَّى سافَرَ إلَى ألمانيا وتعلَّمَ الطِّباعةَ . وفى سنةِ ١٤٧٤ أمكنَهُ أن يَصنَعَ آلَةَ طباعةٍ فى ألمانيا ، وأن ينقُلَها إلَى إنجلترا ، حيثُ افتتَح محلاًّ صغيراً فى لَندَن ، وراحَ يطبَعُ كُتُباً فى كل المَجالات ، فيها القِصَص ،

وتعليمُ الصَّلاةِ والتَّراتيل ، والشّعر ، والرّحلات .

وتجمَّعَ الإنجليزُ حولَ محلِّ « كاكستون » مَذْهوشِينَ من هذا الاختراعِ العَجيب ، وتَدَافَعُوا يتفرَّجُونَ برُؤيةِ الصَّفحاتِ المُتشابِهَة ، التى تُخرجُها آلته العجيبة ،الَّتى تطبَعُ نُسخاً عديدةً من الكتابِ فى يومٍ واحد .

وما هىَ إلَّا أسابيعُ قليلَة ، حتَّى حملَ الكثيرونَ كُتُبَهم المخطوطة ، وهُرِعُوا إلَى مَحلِّ « كاكستون » يطلُبونَ طِباعَتَها على الآلة الجديدة .

وكانَ شَرفاً أىَّ شرفٍ « لوِلَيم كاكستون » ، أن يُغادِرَ مِلكُ الإنجليزِ العظيمُ قصرَه ، ليزورَ بنفسِه مطبعةَ « كاكستون » ، ويشاهِدَ عن كثَبٍ عمليَّةَ الطِّباعة ، ويقتنى نُسَخاً من مطبوعاتِ « كاكستون » .

ومضَتِ السِّنون ، وتطوَّرَ فنُّ الطِّباعةِ تطوُّراً سريعاً في الثَّلاثينَ سنةً الأخيرة ، من القَرنِ الخامِسَ عشر، وعادَ اثنانِ من العُمَّالِ الَّذينَ يعمَلُونَ عندَ « جوتِنْبرج » إلى وطنِهم في إيطاليا ، وافتَتحا فيها مَحلًّا للطِّباعة ، وظهرَتِ المَطابعُ في « برسلو » أوَّل مرَّةٍ سنة ١٤٧٦ .

وغزَتِ الطِّباعةُ بولندة عام ١٥٧٨ ، حيثُ كانت آخرَ البلادِ الأُوربيَّةِ الَّتي تدخُلُها الطِّباعة ، إذ تأسَّسَتْ أوَّلُ مَطبعةٍ في « وارسُو » بعدَ مائةٍ وثلاثين سنة .

أمَّا في الشَّرقِ العَربيِّ ، فقدْ طُبِعَ أوَّلُ كتابٍ في لُبنان سنة ١٧٧٣ ، وعَرفتْ مصرُ الطِّباعةَ بالحُروفِ المُتفَرِّقة ، عندما أحضَرَ « بونابَرتُ » معه في أثناءِ الحَملةِ الفَرنْسيَّة ، مطبعةً كامِلة ، ليستخدِمَها في طبعِ المَنشُوراتِ والبياناتِ الرَّسميَّةِ الَّتي كانت تُلْصَقُ عندَ مَدْخَلِ الحَارات . أمَّا أوَّلُ مطبعةٍ رسميَّة عرَفَتْها مصرُ ، فكانتْ مطبعةَ بولاق (المطبعةَ الأميريَّةَ

الآن) الّتى أُنشِئَتْ سنة ١٨٢١ .

ومُنذُ ذلكَ الوَقت ، تطوّرتِ الطِّباعةُ تطوُّراً كبيرا ، فظهَرَتْ فى ألمانيا آلاتُ الجَمع الآلى ، ثم ظهرت آلاتُ الجمعِ الإلكترونيّ ، وهى من أحدثِ ما توصَّلَ إليهِ العِلمُ فى هذا المَجال .

وآلةُ الجَمع الآليّ بها « كِلافِيه » ، عليهِ أزرارٌ كأزرارِ الآلةِ الكاتِبة ، إذا لَمَسْتها أصابعُ العامِلِ بِرِفْقٍ وسُرعَة ، تدفقت « الماتريسات » ، وهىَ قِطَعٌ نُحاسيَّةٌ مُستَطِيلَةُ الشَّكل ، مختلفةُ السُّمك ، محفورٌ على كلٍّ منها حرفٌ من الحروفِ الهِجائية ، إلَى أن يكتمِلَ جَمعُ السَّطْر ، وعندئذٍ يرفَعُ العَامِلُ ذراعَ الآلَة ، فينتَقِلُ سطرُ الماترِيساتِ النُّحاسيَّة إلَى فَمِ بوتَقَة الرَّصاصِ المُنصَهِر ، فيَضْغَطُ على قالَبٍ يحتَوِى على ذَوبِ الرَّصاص ، فينتُج سطرٌ من الرَّصاص ، هو الذى يُستَعْمَلَ فى الطِّباعة . أمّا الماترِيساتُ النُّحاسيَّة فيتسَلَّمُ كلًّا منها خُطَّاف ، ويعودُ به تِلقائيًّا إلى مكانِه فى مَخزَنِ الماترِيسات ، حيثُ يدخُلُ فى تكوِينِ السَّطْرِ التَّالِى وهكذا .

وآلةُ الجَمْعِ الآليّ ، بها أربعةُ مخازنَ يحتوى كلٌّ منها على بُنْطٍ مختلِف ، باللُّغاتِ العربيَّةِ أو الإفرِنْجيَّة ، حسبَ مقاسِ الحُرُوف المطلُوبِ طَبْعُها ، وفُرْنُ الصَّهْرِ فى الآلةِ يعمَلُ بالكهرباء ، ويَصْهَرُ الرَّصاصَ عندَ درجةِ حرارةٍ مُعَيَّنَة ، وتُخْلَطُ السَّبيكَةُ من الرَّصاصِ الخَامِ والقَصدِيرِ والأَنْتيمُونِ بنسَبٍ معيَّنةٍ كذلك ، وإذا وقَعَ خَطأٌ فى جمعِ الحُروف ، يُعادُ جَمعُ السَّطْرِ كلِّهِ من جديد .

وفَضلاً عن أنّه يُمكِنُ لهذه الآلة ، أن تَجْمَعَ الحُروفَ وتَسْبُكَها بسُرعَةٍ قد تصلُ إلى ١٨٠ سطراً فى السَّاعة ، فإنَّ الطِّباعةَ بهذه الطَّريقة ، تضمنُ أن تكونَ الحروفُ المُستخدمةُ جديدةً دائما ، فتُحقِّقَ طباعةً جيّدةً ، بطريقةٍ مُيَسَّرة ، وبتكاليفَ أقل .

وعلَى هَذا فقدْ أصبَحتِ الكُتُبُ فى متناوَلِ الجَميع ، يقتنيها الأغنياءُ والفقراء على السَّواء . وقد طُبِعَتْ منذُئِذٍ آلافُ الكُتُب ، وانتشَرتْ رِسالَةُ العِلْمِ فى كلِّ أنحاءِ العالَم ، وأصبَحَ الأطفالُ يتعلَّمُونَ العِلْمَ منذُ صِغَرِهم .

وأنتَ اليومَ إذا قرأتَ قصةً ممتعةً ، أو درستَ بحثاً علمياً شائقا ، أو استذكرتَ دروسَك فى كتبٍ مطبوعةٍ بلغاتٍ مختلفة ، فلا تنسَ قصةَ جذْعِ الشجرة ، الذى غيَّر وجهَ الدُّنيا .